ثريا

للاستاذ محمد السيد

نبتت فى بيت من بيوت بني إسرائيل وكان أبوها رقيق الحال شب وشاب فى حجر اليهودية ـ فى أرض الوطن المقدس ـ ولما كبر أبناؤه غادر الجميع أرض الوطن العزيز

وفى ختام القرن التاسع عشر هبطت الأسرة أرض وادي النيل واختارت القاهرة مستقرا ومقاما ، وضربوا فى زحمة الحياة وأنشبوا فيها مخالبهم ولكن على قدر ماهيأ لهم الاقلال والعوز

وكانت ثريا صغرى بنات هذا البيت طفلة نحيلة الجسم ضعيفة التكوين درجت فى حجر الضيق وشبت فى أحضان الفقر والفاقة

تعلمت فى مدارس الطائفة المجانية وقطعت فيها الشوط الابتدائى ثم ألحقها أهلها (بالمعلمة) تتعلم فن الخياطة وتفصيل ملابس السيدات وألحقت نفسها هى بالمدرسة العامة عن طريق الكتاب والدرس فى المنزل

ثم كان لصاحب المنزل الذى تسكنه ابن يتيم مات عنه أبوه صغيرا ـ وكان الرجل ذا وظيفة فى الحكومة فلما كبر ابنه رأى أهل الخير أن (يجعلوه) مكان أبيه وكان عبد الرءوف (شقيا) يعاكس بنات الحارة ويضايق أبناء الجيران

ولم يكن لتعيينه فى وظيفة حكومية أى أثر فى خلقه أو فى عاداته فهو (يشاكل) الطوب لم تسلم ثريا من معاكساته المقرونة المطردة ولم يكن بادىء الأمر يقصدها بذاتها بل كل مافيه حبه للشغف وميله الغريزى (للشقاوة) ليس غير

وكانت (الفتاة) من جهتها هادئة الطبع سليمة الطوية لاتحب أن تغضب أصحاب البيت بالشكاية من ابنهم وكثيرا ماكان (يشنكلها) فى السلالم أو يختبىء بجوار الباب حتى إذا دخلت فى الظلام أتى بحركات شيطانية تفزعها

على أن هذه المشاغبات قد انتهت إلى نتيجة عكسية ، إذ افتقد الفتى صاحبته بضعة أيام فتفقدها فلم يجدها وهنا أحس كأن شيئا قد ضاع منه وأن هذا الشيء جدير بالبحث وبالسؤال

أترى أين ذهبت ثريا؟ أتكون اختفت من مضايقاتي ؟ أوهى فرت أوماذا جرى لها ؟

ثم ماشأنه هو يسأل هذه الأسئلة ! أليست ثريا واحدة من اللواتي يعاكسهن في الصباح وفي المساء أوماذا يارى ؟ إن شيئا في نفسه يدفعه إلى السؤال بل يحرضه عليه تحريضا .

وفي ظهيرة اليوم الرابع وقد عاد لتناول طعام الغداء أجمع أمره على أن يسأل عن صاحبته ـ وكيف يتسنى له هذا ؟ لكنه مصر

دق الباب وكان ينتظر أن يري التي جاء يسأل عنها ، وسرعان ماخاب ظنه وخرجت أمها تري من بالباب

فتلعثم صاحبنا .. ثم قال لقد نسيت أن البنت (إيفون) صديقة ثريا كانت منذ هنيهة تسأل عنها في الحارة وكانت معها سلة ملآى بالملابس ـ فقالت مدام صالح إن ثريا مريضة منذ أيام و رجته إذا قابل ايفون أن يخبرها فتركها ومضى لشأنه وهو يردد في نفسه: انها مريضة منذ أربعة أيام ؟ .. ..

وكان الفتى غريرا لم يحنكه الدهر ولم يجرب من أمور الدنيا شيئا، غير أن ذاكرته عادت به الى الماضى فارتسم فى مخيلته شيء واحد هو أن والده مرض أسبوعا واحدا ثم مات فى ختام اليوم الثامن . مسكينة ثريا انها ستموت بعد أربعة أيام كما مات أبوه وقد قوي هذا الاعتقاد فى ذهنه الملاحظه على أم الفتاة من الحزن والارتباك ثم مضى لشأنه ، تتنابه الهواجس ، وكان هذا هو اليوم الذى بدأ يعمل فيه تفكيره .

بداله أنه قلق وأن الدنيا تضيق به وأن زملاءه واخوانه يتهددونه و يضيقون عليه الخناق وأن أمه وأخواته البنات عنه غير راضيات ، ثم أخذ يتهم الدنيا بمعاكسته والتواطؤ مع الغير على إقلاقه

ثم سأل نفسه ماذا ياتري سر هذا وأخذ يفتش فى حياته السابقة فلم يجد غير أنه فقد الفتاة (ثريا) أربعة أيام وأنه سيفقدها إلى الأبد

آه أنا أحبها .. .. ولكن الحب يفعل هذا كله! لقد كنت أظن أن الحب هذا لعبة يتسلى بها من الناس من ليس لهم فى الدنيا عمل ... ثم مضى فى تأملاته شارد الفكر مضيع اللب والحجا... ولما عاد فى المساء اجمع أمره وادبر فى نفسه حاجة تدعوه لدخول البيت والسؤال عن صاحبته ثم مالبث أن دفعه شيء ... شيء لا يعرفه ولا يفهمه الى اقتحام الباب والولوج إلى حجرة المريضة المنطرحة على فراشها محلولة الشعر تكاد تكون عارية إلامن (غلالة رقيقة) تستر الجسم النحيل الذي زاده المرض رقة وضعفا على ضعف

ثم وقف بازاء السرير مبهوتا و وقفت من خلفه أم المريضة تكاد تجن لهذا الفتى الغريب الذى اقتحم بيتها دون استئذان ؟!

ولم يترك لها عبد الرءوف فرصة للتنكر له أو لابداء أى ملاحظة، إذ تقدم من المريضة وقال هاأنت نائمة يا (ثريا) ولكن أنت أيضا مريضة، فقالت الأم بغضب وحنق نعم هي مريضة فأنشأ الفتي يخبر (العجوز) أن المرض شائع فى هذا الفصل من السنة وأن أربعة من زملائه العشرة مرضى وأن طبيب المصلحة عادهم وأنه مستعد أن يدعو الطبيب ليعود المريضة على اعتبار أنها أخته أو قريبته وأن هذا يتوقف على رضاها هى ..

فأجابت الام شاكرة ومعتذرة عن قبول ماعرضه قائلة إن الحاجة لاتدعو لذلك فان الطبيب الذى عالج ابنتها قرر أنها تماثل الى الشفاء وأن درجة الحرارة منذ أمس تكاد تكون عادية ولم يبق فى الواقع الا بضعة أيام تسترد فيها ابنتها قواها

وفى الايام التالية أخذ الفتى يزور المريضة فلما أبلت كانت تقابله أحيانا كثيرة على السلم

وكانت ثريا بادىء الامر لاتشعر بشىء يدفعها للخروج الاقاة صاحبها على السلم غير ملاحظات أمها وتعنيفها اياها

تلك الام التي كانت قاسية على ابنتها حتي لانشجع هذا الفتي الغريب على المضى فى حب غير مأمون الجوانب محمود العاقبة

وفى أحد الايام وعلى غير موعد التقيا في (الموسكي) وأخذا يتحدثان فى شئون كثيرة حتى وجدا أنهما فى آخر الشارع عند الجبل فقالت لصاحبها ماذا حدث يالله .. .. حتي نسينا أنفسنا هكذا .. .. ثم افترقا وعاد هو لعمله دون أن يذهب لمنزله ودون أن يتناول طعام الغداء ثم مضت أيام وكرت شهور وهما يتقابلان يوميا وفى مواعيد مضبوطة ويقطعان الطريق يتشاكيان ويتناجيان لابلغة الكلام ولكن بلغة العيون واللواحظ

وفى يوم سبت تقابلا فى الجيزة وكانا على موعد وتنزها فى حديقة الحيوان برهة ثم طفقا بعد ذلك يتفرجان ! ! ! ثم بدا لهما أن الوقت قد أزف وأن ساعة العودة قد آذنت فخرجا وسارا ، وفي الطريق وعلى حين فجأة وقف عبد الرءوف ونظر الي صاحبته متضرعا ، متوسلا ثم أمسك بيدها وأشار الى صدره قائلا هنا فى هذا المكان بين اللحم والدم نار ، بل نار مستعرة متقدة دائما لاهى تنطفىء ولاهذا الجسم ينتهى وتستريح نفسى من هذا العذاب الدائم نعم انها نار وهى دائما مشبوبة ثم ان النار تأكل ماحولها ولكن مصيبتى فى أن هذا الذى تأكله النار لم ينفد حتي كنت أستريح من الدنيا، فحاولت الفتاة أن تهدىء من روعه بكلمات فاشار اليها أن اسكتى ثم استتبع يقول إن منبعث هذه النار وسر هذا الالم هو انى أحبك... أفاهمة أنت ؟

حاولت مرة أخرى أن تجيبه فأشار اليها أن تبقى ساكتة ثم قال نعم إني أحبك وقد حاولت أن أسلوك أوأنساك فلم أفلح ولم يبق أمامى الا شيء واحد هو ان تكونى لى والا فالنهاية معروفة

ستقولين إنى مسلم ودينك وتقاليدكم لاتسمح لك ان تكونى لمسلم ، وهذا اعتراض قد تكون له قيمته ووزنه لدى العقول أما القلوب فلا تستطيع أن تفهم معني كهذا — فأنا مسلم وأنت غير مسلمة ونستطيع أن نكون زوجين سعيدين هذا منطق القلوب، قالت الفتاة والله لشد ما كنت أحسب لهذا اليوم حسابه وكنت أخشى هذا الذى تقوله ، على رسلكم معشر الرجال فأنتم لاتحبون من المرأة الا ما تلقون فيها من متعة زائلة وشهوة طائشة. ثم تزعمون أنكم تحبون وأنكم تفهمون معني الحب وتدركون سر الحياة أيضا أليس من الظلم ياعزيزى ان يخلط الناس بين الحب و بين شيء آخر قد يكون أثرا أو نتيجة لحب غير بريء ولا لهوى غير عذرى؟ ونحن اليهود ونفهم للحب معني غير الذى اليه تقصد؟

فالحب هو فى الدنيا كل شيء ولا استطيع أنا أن أعبر لك عن معناه وقد يكون طاعة وقد يكون عبودية وعندى أنه هو الفناء فى ذات المحبوب و بهذا يمكننى أن أزعم أن شخصين محبين هما شخص واحد دون أن يتزوجا ودون ان يختلطا أى اختلاط . . . . .

فاذا كنت تفهم الحب على انه اختلاط أو زواج أوما الى ذلك ؟ فكيف اذن تحب الله ؟ وكيف تحب الأنبياء ؟ وكيف تحب والديك واخوتك ؟

قال الفتي أنت تناقضين فالحب كلمة عامة جامعة وأنا أحب الله والرسل وأهلي وأحبك أيضا فى وقت واحد . . . دون ان يكون فى هذا تناقض فلكل ممن ذكرت فى نفسى مكانة معلومة . . . و وجهة معينة . . . بل وجهة خاصة

ثم إنى أعترف لك اني لست فيلسوفا دائما أي محب يريد أن يضع لهذا المحبوب حده ثم هوى عليها يريد أن يقبلها فصاحت متبرمة فانثنى راجعا . . . مذهولا لهول الصدمة . . . .

وقال اذن أنت قد حكمت على و بقسوة ها أنا أموت فيك ومن اجلك فبالله لاتنسي هذا الحب اذا أحببت غيرى . . . . . أما اذا تزوجت هذا الحب فلا تنسى كلما قبلك واحد أن تمنحيه اثنين واحدة له والاخرى لآخرمات فيك ومن أجلك ثم سحب يده من خصرها النحيل ومضى فى طريق مظلمة فلما كاد يختفى عن العين جرت خلفه تناديه أن ارجع فلم يجبها فجرت حتى ادركته واوقفته قائلة ماذا تريد ؟ تريد أن تموت

من أجلى ؟ فنظر إليها ثم قال وما شأنك بمن يموت أو بمن يعيش ؟ فوالله الموت احب الى من دنيا فارغة مثل هذه

قالت اذن أنت تحبنى .. .. حتى تموت في حبي ومن أجلي .. ولماذا لا تعرف انى أحبك واني اعبدك .. وانى لا اعيش الا بحبك ؟ غير أنى والله لا أعرف مخلصا من المأزق الذى أوقعتنى فيه فلست أعرف كيف أنسى نفسى وانسي بيتي وانسى الناس جميعا

ومعلوم أن نفسى لا تعدل شيئا فى سبيل إرضائك و إسعادك ولكن أنت تعرف الواجب وتعرف ما تواضع عليه الناس فكن عاقلا وارحمني إذا كنت حقا تحبني فانى جديرة بالعطف ممن وهبته روحى

* * *

لست اعرف بعد ذلك غير انهما تزوجا (فى المحكمة الشرعية) وأنهما عاشا زوجين سعيدين وانهما أنجبا طفلا اسمياه (خلدا) وانها بعد ذلك أسلمت وحسن اسلامها واستقامت فى بيت زوجها مسلمة متحجبة مبالغة فى ذلك كل المبالغة ثم حدث بعد ذلك أن مرض زوجها وأن أعضل مرضه الاطباء زهاء السنتين ... ثم قضي نحبه

وكان للطفل أقارب لأبيه حاولوا جهدهم أن يكفلوه فلم ينلحوا إذ أبت أمه عليهم ذلك كل الاباء وكان المجلس الحسبي قد عينها على ابنها وصية وكنا نعيب عليه أن يوصى بأبناء المسلمين (يهودية) ولكن ثريا لم تعد يهودية بل شقت طريقها فى الحياة (كمسلمة) وقامت بتربية ابنها تربية إسلامية محضة ثم إذا سألتنى كيف عاشت بعد أن خلفها زوجها بلا مال ولا عقار؟ أخبرتك أن هذه المرأة غير المتعلمة عاشت وتعيش بذكرى زوجها ومن أجل ابنها ومن كسب يدها ؟

محمد السيد

شكر واعتذار

نشكر جميع حضرات الذين أرسلوا الينا بمقالاتهم . ونعتذر لحضراتهم جميعا عن نشرها فى هذا الجزء ، حيث ضاق نطاقه . وموعدنا بنشرها فى الجزء المقبل ان شاء الله ؟

المحرر